المؤسسة الدينية بين التربية الروحية للأمة، والمقاومة العسكرية للعدو إبان الفترة الاستعمارية

أ. شاطو محمد،
جامعة معسكر.

لاريب في أن الدّعوة الإسلامية إنّما قامت على عقيدة التوحيد، توحيد العقيدة، وتوحيد الكلمة، وتوحيد النّظم، وتوحيد المجتمعات، وتوحيد المقاصد والغايات؛ ظلّت المؤسسة الدينية عبر العهود المتلاحقة تتحمّل تبليغ رسالتها.

فأصبح المسلمون بنعمة اللّه إخواناً، فتحوا الأصقاع والبقاع، وصاروا سادة الأرض، ودعاة الناس إلى الحرية والإنسانية، وقواد الإصلاح والعدالة الإجتماعية والقيم الأخلاقية،

الى أن أصابهم الوهن، فتخلوا عن واجبهم، واستهانوا بوحدتهم؛ فكانوا عرضة للاستعمار الذي نال كثيراً من عزّتهم.

وصدق الشاعر إذ يقول :

تأبي الرّماح إذا اجتمعن تكسُراً ❖❖❖ وإذا افترقن تكسّرت آحادا

فتوحيد الكلمة وتعزيز أواصر الأخوة، و لمّ الشَّمل ونبذ الخلافات سيظل دائماً رمز قوتنا وعزة أمتنا.

فالمسلمون ملّة واحدة يجمعهم إله واحد، وكتاب واحد، ودين واحد، وشريعة واحدة فما يجمعهم أكثر مما يفرقهم. والجميع كما يقول الشاعر :

إنّا لتجمعنا العقيدة أمة ❖❖❖ ويضمنا دين الهدى أتباعا

ويؤلف الإسلام بين قلوبنا ❖❖❖ مهما ذهبنا في هوى أشياعا

من هذا المنطلق كانت المؤسسة الدينية في الجزائر ـ زاوية كانت أو مسجداً ـ حاضرة في كل المراحل التاريخية التي مرّ بها هذا البلد، ولا سيما أثناء الفترة الاستعمارية 1830 ـ 1962؛ أين يجمع كل من كان يلازمها بين الرحمة والشدة، والزهد والنعيم، فتجده ينال الدنيا بحقها، وينال الآخرة بالسعي لها، ولذا لا تغلب عليه صفة من صفات عُبّاد الدنيا، ولا يأخذه الهوس الديني، أو الغلو التكفيري، جامعًا بين الامارة والفقه، وبين السياسة والتجارة. لأنّه مدرك أنّه عبد لله تعالى[1].

الإسهامات التربوية للمؤسسة الدينية في الجزائر

يقول المستشرق الفرنسي المسلم "إريك جيوفروي" ـ المختص في الصوفية بجامعة لوكسمبورج، شمال فرنسا ـ في حواره الخاص مع "إسلام أون لاين نت :"أن المستقبل في العالم الإسلامي سيكون حتماً للتيار الصوفي". ويرى أيضاً أنّ الصّوفية قد مارسوا السيّاسة في أحيان كثيرة كما مارسوا أدواراً ثقافيةً واجتماعيةً.

من هذا المنطلق نحاول الخوض في هذا الموضوع، بحثاً في سبب احتلال هؤلاء الصّوفية هذه المكانة الرفيعة،ونرى ماذا قدّم التّصوف والصّوفية للمجتمع الجزائري خلال الفترة الاستعمارية بوجه الخصوص ؟ وهل اقتصر دورهم فقط على التحرير الذاتي، وتطهير النفس من الرّعونات؟ وهل مكثوا في زواياهم يردّدون الأذكار غير ملتفتين إلى ما يجري حولهم من تطوّرات وتغيّرات ؟ أم أنّهم سعوا إلى تغيير واقعهم والمحيط الذي يعيشون فيه، وخدموا المجتمع الذي وُجدوا به وقادوه إلى بر الأمان. وعليه فسنتناول في هذه العجالة ثلاثة نقاط أساسية يمكن من

خلالها الإجابة عن بعض التساؤلات ومنها : نشأة العلاقة بين الصوفية كمؤسسة دينية والمجتمع، ثم الدّورالديني و الإجتماعي والعسكري الذي قام به المتصوفة في الجزائرإبان الفترة الاستعمارية، ثم موقف الاستعمار من المؤسسة الدينية عموماً.

العلاقة بين الصوفية والمجتمع:

اتخذ التصوف في الجزائر ـ كما في بقية بلدان العالم الإسلامي ـ منذ بداية ظهوره أبعاداً اجتماعية، وذلك بسبب الظّروف التي كانت تعيشها البلاد في تلك الفترة (ق7، 8، 9هـ) وانساق الناس وراءه لما وجدوا فيه من بساطة ومساواة وعدل وإحساس بالذات، كما كان شكلًا من أشكال التعبير عن الرفض في التمييز بين طبقة الأغنياء المترفين، وطبقة الفقراء المُعدمين.

من هنا كان المتصوفة الأوائل بمثابة النخبة التي تمسكت باستقلاليتها الفكرية وسلوكاتها الدينية تجاه السلطة الحاكمة، وفي ظل هذه الأجواء نشأت فئة متنورة من الجزائريين أصحاب الثقافة "التقليدية".[2] لذلك وقع اضطهادهم من طرف الحكام، وقاومهم العلماء الرسميون. والمشهد نفسه يتكرر تقريبًا في كل العهود، كما وقع مع أحمد التيجاني، محي الدين بن مصطفى الحسني في العهد العثماني، ووقع الالتقاء بين المتصوفة وعامة الشعب، في مواجهة السلطة كلما ألحقت بهم الضرر، تموقعوا في نفس الخندق، ووجدوا أنفسهم في نفس الجبهة، يقاومون الظلم والتعسف، والتمييز. وهو ربما ما يفسر لنا سر هذه العلاقة بين العامة والمتصوفة، قبل الوصول إلى مبدأ الكرامة وسلطة الأولياء على أفكار الناس وخيالهم.

وسعى الصوفية إلى حل مشاكل المجتمع ووقفوا الى جانبه متحدان، فاتحاد الهدف نابع من فكرهم وعقيدتهم: **العيال عيال الله.**

وقد كان الصوفية على مر العهود رمز الوحدة مع المجتمع، والمطالبة علنا بحقوق الشعب ومصالحه.

إن هذا التلاقي وإن بدأ بشكل عفوي، دون سابق تحضير أو تنظيم أو استعداد، فقد أفرز الكثير من النتائج الهامة ولعل من أبرزها الانتشار السريع للتصوف بين مختلف الطبقات الشعبية، فقيادة الشعب بعد انهيار الدولة الجزائرية مع الغزو الفرنسي سنة 1830، واستطاع المتصوفة توظيف هذه العلاقة في الدفاع عن مصالح الشعب، ولم تنقطع هذه الصلة بين المتصوفة والعامة إلى يومنا هذا، بحيث لا نزال نجد تأثيرهم موجوداً في مجتمعنا، بالرغم من التطور الفكري والثقافي، ودخول الأفكارالحديثة؛ وان بنسب متفاوتة بين منطقة وأخرى.

من هنا يمكننا أن نفهم : لماذا اختارت الفئات الواسعة من المجتمع الانتماء إلى هذا الاتجاه الفكري، حتى وإن كان مخالفاً لفكر حكامها أحياناً فكان الصوفي فردًا من مجتمع الناس، يأكل ويتاجر ويتزوج كما يفعل الناس، لكنه في نفس الوقت كان يمثل قدوة لهم ونموذجًا يتطلعون إليه ويعلمون سيرته بينهم . وإذا كان بعض الصوفية من لجأ إلى الفلوات والمقابر زاهدين متعبدين متجردين، فإنّ هذا لا ينطبق على كل الصوفية بل هي حالات استثنائية خاصة، ثم إنهم يرون أنه عندما تدعوهم الحاجة فإنهم يتخلون عن مجاهداتهم الخاصة وينتقلون إلى خدمة الصالح العام، ولعل أبرز مثال على ذلك هو الأمير عبد القادر،

الذي لبى داعي الواجب الديني والوطني وتخلى عن عزلته وتدريسه بزاوية والده الشيخ محي الدين بوادي الحمام بالقرب من مدينة معسكر.

دور المؤسسة الدينية إبان الفترة الاستعمارية:

احتلت المؤسسة الدينية مكانة هامة في حياة المجتمع الجزائري، منذ البداية إلى يوم الناس هذا، ولعل ذلك راجع إلى الدور الكبير الذي قامت به في حياة المجتمع الجزائري. وإذا أردنا معرفة وحصر الأدوار التي قامت بها المؤسسة الدينية في الجزائر فسنجدها كثيرة متعددة ومنها:

- الدفاع عن الدين والوطن:

من أهم الأدوار التي قامت بها المؤسسات الدينية، في ظل ظروف سياسية متدهورة دور البديل والمنقذ والملجأ لمختلف طبقات الشعب التي لم تجد بغيتها وضالتها إلا في هذه المؤسسات وفي مقدمتها الطرق الصوفية وزواياها المنتشرة في كل مكان، ومن أهم الأحداث السياسية التي يمكن لنا رصدها:

- استمرار تدهور السلطة المركزية.

اشتداد الأخطار الخارجية، الحملات الصليبية الإسبانية والبرتغالية التي عرفتها سواحل الجزائر منذ مطلع القرن 16. وهي المعادلة الصعبة التي وجد الصوفية أنفسهم ضمنها فحاولوا أن يقفوا موقف الوسط للدفاع، والحفاظ على مصالح الأمة

ففي حالة ضعف السلطة الحاكمة أو انهيارها وغيابها، قاد الصوفية جموع الشعب إلى الدفاع عن الدين والوطن من الخطر الخارجي. وكما نعلم فإن من أسباب انتشار الرباطات والزوايا على طول السواحل الجزائرية، هو مقاومة الغزو الصليبي المستمر، ومن الأدلة على

هذا الدور رسالة الشيخ عبد الرحمن الثعالبي في الدعوة إلى الجهاد، كما أن زاويته كانت مقراً للاجتماعات والاستعداد لمواجهة العدو، وظل ذلك دأب الجزائريين إلى غاية القرن 19.

وكذا زاوية الشيخ التازي بوهران التي كانت تمثل قاعدة خلفية مليئة بمختلف أنواع الأسلحة،استعملها المجاهدون في صد عدوان الصليبيين.

وبعد سقوط الدولة إثر الاحتلال، كانت الطرق الصوفية هي التي تولت المبادرة، فمقاومة الأمير عبد القادر كان مصدرها الطريقة القادرية، حيث التفاف الجموع والقبائل حول شخص الشيخ محي الدين، الذي كان يمثل شيخ هذه الطريقة التي عرفت بتغلغلها في الأوساط الشعبية، ونحن نعلم أن تأثير الشيخ محي الدين لم يكن مصدره جاه أو سلطة أو مال، فلم يكن يمثل أي منها، ولم يكن رمزا إلا للطريقة القادرية التي تشرف بخدمتها، وبخدمة زاوية جده الشيخ مصطفى لمدة سنوات، وعرف بتصوفه وزهده، وعلمه وحلمه .وتستوقفنا أيضا مقاومة 1871 ببلاد القبائل والتي مثل الشيخ الحداد زعامتها الروحية، وهو شيخ الطريقة الرحمانية، وكذا مقاومة لالا فاطمة نسومر، كما نلاحظ الحضور الفعال والمستمر لرجال الطرقية في مختلف الثورات، أولاد سيدي الشيخ، ثورة الشيخ بوعمامه 1881، الشيخ آمود، الشريف بو بغلة، الشيخ بوزيان (الزعاطشة). حتى أن السيد أوكتاف ديبون - المفتش العام للبلديات المختلطة بالجزائر ومن مؤلفي كتاب الطرق الدينية في الجزائر 1897 - يؤكد في تقرير بعث به إلى لجنة مجلس الشيوخ المكلفة بالجيش والتي كان يرأسها "كليمانصو": " إننا سلفا نجد

يدا مرابطية وراء كل هذه الثورات التي يقوم بها الأهالي ضدنا". ويقول المؤرخ الفرنسي مارسيل إيميري: " إن معظم الثورات التي وقعت خلال القرن التاسع عشر في الجزائر كانت قد أُعدت ونُظمت ونُفذت بوحي من الطرق الصوفية، فالأمير عبد القادر كان رئيسًا لواحدة منها وهي الجمعية القادرية، ومن بين الجمعيات المشهورة التي أدت دوراً أساسيًا في هذه الثورات: الرحمانية، السنوسية، الدرقاوية، الطيبية ."ويذكر حمدان خوجة في كتابه المرآة أن شيوخ الطرق الصوفية هم الذين أمروا جميع المواطنين الجزائريين بالتعبئة العامة والدفاع عن مدينة الجزائر العاصمة بعد تخلي الأتراك عن هذه المهمة.

كشف الضابط دي نوفو في كتابه الإخوان الصادر سنة 1845 عن الدور الرئيس الذي أدته الطرق الصوفية في مقاومة الاحتلال، وتحدث النقيب ريتشارد عن ثورة الظهرة التي قامت سنة 1845 مبرزًا الدور المهم الذي قامت به الطرق الصوفية في هذه الثورة . ومن تقرير للمفتشية العامة حُرر بالجزائر سنة 1864 يعترف بالدور الخطير الذي تقوم به الطريقة الدرقاوية: " الدرقاوية كانوا معادين لنا كل العداء لأنغايتهم كانت سياسية بوجه خاص، أرادوا ان يشيدوا من جديد صرح امبراطورية إسلامية ويطردوننا، إن هذه الطريقة منتشرة جدا في الجنوب ومن الصعب جدا مراقبتهم."

ـ التعليم والإرشاد والتوجيه:

صبحت المؤسسة الدينية مع مرور الزمن والتحاق العديد من أبناء الشعب بها، مراكز إشعاع ونشاط فكري عظيمين، بل أحيانا الملجأ الوحيد للتعليم، وتبادل الأفكار والنقاش، وكذلك الإنتاج. ورغم القيود

التي فرضها الاستعمار عليها تولت العناية بتحفيظ القرآن للأطفال، وتعليمهم القراءة والكتابة، والمباديء الأولية في اللغة والحساب وبعض المتون، وإرشادهم بضرورة التمسك بتعاليم دينهم، وتحذيرهم من سياسة التنصير التي كانت فرنسا تنتهجها مع أبناء الشعب الجزائري

- الدور الإقتصـادي

أصبحت المؤسسة الدينية وفي مقدمتها الزوايا تشرف بصفة مباشرة على الاقتصاد المحلي والإقليمي، بل على بعض الحركات التجارية الحساسة، وقد تجسد ذلك كله بواسطة امتلاك الأراضي ووقفها لخدمتها، وجمع التبرعات التي تصل من المريدين، وكذا الزكاة التي كانت تمثل مصدراً هامًا للمال بالنسبة لهذه المؤسسات الدينية.

الدور الاجتماعي للمؤسسة الدينبة في الجزائر:

نظرا للخدمات الجليلة التي قدمها رجال الدين عموماً وأهل التصوف خصوصاً للمجتمع الجزائري، أصبحت العامة تعتمد اعتماداً كليًا عليهم لمواجهة الأزمات الاجتماعية والاقتصادية التي كانت تحل بها من حين لآخر، وهذا نظراً لعجز الدولة أو السلطة على التكفل بحل مشاكل الناس، ومع مرور الزمن ترسخت قناعة لدى العامة أن الصوفية هم أقدر الناس على حل المشاكل وتقديم المساعدات للطبقات المحرومة، بل أصبحت في مناطق شتى الملاذ الأول والأخير للجماهير

فإذا كانت غاية الطريق الصوفي هي غاية خلقية تتمثل في إنكار الذات والصدق في القول والعمل والصبر والخشوع ومحبة الغير والتوكل على الله وغير ذلك من الفضائل التي دعا إليها الإسلام؛ فإنها ومن خلالها المؤسسة الدينية وفي مقدمتها الزوايا ظلّت مركزاً لوحدة القبيلة،

وملجأ للفقراء والمساكين ومحطة لعابري السبيل ومأوى لليتامى، كما أنها كانت قبلة للمتخاصمين من أجل فض نزاعاتهم، ومركز إشعاع يحافظ على تقاليد المجتمع وعاداته وأصالته في مواجهة السياسة الاستعمارية الرامية إلى طمس معالم المجتمع الجزائري العربي المسلم؛ وقد صدق من عرَّف الزاوية بأنها مؤسسة شاملة، فهي مسجد للعبادة ومدرسة للتعليم، وملجأ للهاربين، ومأوى للغرباء، ومركز للفقراء.[3] وسنتناول هذه الوظائف بنوع من الشرح.

أولا: مركزاً لوحدة القبيلة:

إنّ المؤسسة الدينية زاوية كانت أو مسجداً قد قامت بدور يجدر التنويه به من الناحية الاجتماعية، فقد ساهمت في فض النزاعات والخصومات على الأرض والتحكيم بين المتنازعين في القبيلة والتدخل لرفع مظلمة ودفع مغرم على فرد أو جماعة. كانت مركزا لوحدة القبيلة، والتوحيد بين القبائل الأخرى وفك الخصومات والنزاعات بينها، وضبط النظام العام كل ذلك امتثالاً لقوله تعالى : " إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون "[4] وأصبحت مع مرور الزمن معلمًا يلتف حوله رجال القرية وتدور عليه حياتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية،ورمزاً اكتسب قوته من قوة شخصية الشيخ والتفاف أفراد قبيلته حوله. ووجدوا فيه واجهة ومظهراً يعبر يمثلهم في مركز الرّيادة والقيادة في المنطقة.

ثانيا: فك الخصومات:

من الأدوار الأساسية التي أدتها الزوايا والمساجد في المجتمع : فك الخصومات والنزاعات بين القبائل، وإصلاح ذات البين والتوحيد

بينها. فكثيرا ما تحدث الخصومات بسبب الاختلاف على الماء أو الأرض أو أو المرعى أو ثأر بين القبائل المتنازعة، فلا تجد لها حلاً سوى اللجوء إلا شيوخ الزوايا والمساجد لفض النزاع، وهو موقف نابع من حاجة الريفي أو البدوي لتقديره لرجال الدين أو الأشراف، خصوصًا إذا اشتهروا بالصلاح والتقى وهي ظاهرة لمسناها مع انهيار الدول الثلاث في المغرب العربي، وسيادة الفوضى والاضطراب في الحكم، وحتى بعد دخول العثمانيين وجدنا هذه الظاهرة بل ازدادت انتشاراً وتوسعًا .

ولقد سعت السلطات الفرنسية إلى استبدال القوانين الإسلامية في المجال القضائي، بالقوانين الفرنسية، ففي 18 فيفري 1841، صدر أمر من السلطات يتضمن التنظيم القضائي في الجزائر، انتزعوا بموجبه من القضاة المسلمين البت في الأمور الجزائية، وأصبح القضاء الإسلامي مقتصراً على الأحوالالشخصية، وحتى هذه الأخيرة حاولت السلطات الفرنسية إخضاعها للقوانين الفرنسية وإلغاء الاحتكام للشريعة الإسلامية من خلال قانون " سناتور كونسيلت."

أمام هذا الوضع وفي ظل هذه الظروف أصبحت المؤسسات الدينية ملجأ للسكان من أجل فك نزاعاتهم وحل خصوماتهم، سواء كانت بين الأفراد أو بين القبائل والأعراش، حيث يذكر أن قضايا الأحوال الشخصية أو قضايا الجنايات والخلافات على الأراضي، كان يفصل فيها بالزاوية، أو المسجد ويحتكم فيها إلى الشيخ ، وأصبحت المؤسسة الدينية تمثّل المرجع الأعلى في القضايا، والمحكمة العليا بالنسبة للأفراد والقبائل في تلك الفترة، امتثالاً لقوله تعالى **" لا خير في كثير من نجواهم إلاّ من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين النّاس "** [5]. وهو الأمر الذي

لفت انتباه الكاتب الفرنسي *Lehraux Leon* ، خلال زيارته إلى الجزائر حيث يقول: " تعتبر الزاوية مقرّا للقضاء، فهي تختصّ بالفصل في القضايا المدنيّة والجنائيّة، حيث كانت تحلّ من قبل الشيخ بحكم مكانته العلميّة والاجتماعيّة وما هو مشهود عنه من عدل وحكمة وعلم، ويكون فصله إمّا بالصلح والتراضي، أو بالتعويض، أو الفدية، فالقضايا المدنيّة متمحورة في النزاعات حول الأراضي، والمباني أو الميراث،والقضايا الجنائيّة تتمثّل في جرائم القتل وتدخّل الأعراش للثأر. كما تعتبر الزاوية مقرا لعقد القران، والتعاقد بين الأفراد.

ثالثا: الشفاعـات:

لقد كان شيخ الزاوية أو شيخ المسجد أو الكُتاب يسعى لقضاء حوائج من يقصده من الناس، ويستغل مكانته في هذا الباب، وكثيرا ما تجاب رغباتهوطلباته من طرف ذوي الجاه والسلطان لحاجتهم الى دعم الشيخ لهم واتقاء سخطه عليهم، فيكون واسطة بينهم وبين الناس ؛ امتثالاً لقوله تعالى : **" من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها "**[6].

لقد كان رجل الدين يقوم بدور حيوي في المجتمع الذي فتكت به الأزمات، فهو يحاول حل الأزمة وتعويض المأزومين مادياً وروحياً تحقيقاً لتوازن مجتمعه.

استطاع رجال الدين التوفيق بين المحافظة على النقاء الروحي والخلقي وواحتواء المجتمع ككل، ونحن نعلم مدى صعوبة هذا الأمر واستحالة تحقيقه في الغالب. إذ غالبًا ما نضحي إما بالنقاء الروحي والخلقي أو بالمكانة في المجتمع. نجحوا في التأثير على مجتمعهم،

والحفاظ على سلوكهم الإنساني المحدد ضمن المبادئ الشرعية الإسلامية.

رابعا: كفالة اليتامى والأرامل:

من الآثار السلبية للاحتلال الفرنسي كثرة الأرامل والأيتام، وذلك بسبب انتشار المجاعات من حين لآخر، وكثرة الأمراض الفتاكة التي كانت تصيب أفراد المجتمع الجزائري لانعدام الرعاية الصحية، وتدهور الظروف المعيشية للسكان، وعدم توقف الثورات الشعبية طيلة القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. وقد أولت الزوايا والمساجد اهتمامًا كبيراً بالأيتام من خلال إيوائهم والتكفل بهم وبحاجياتهم، ولم تكن المؤسسة الدينية تكتفي بتوفير المأوى والمأكل لليتامى فقط، بل كانت تهتم بتربيتهم وتعليمهم وتسمح لهم بتولي المناصب العليا الخاصة بتسييرالزاوية أو الكتاب أوالمسجد، حيث يذكر أنّ أفرادًا من أسرة المقراني قد عينوا كمقاديم في الزاوية.

وقد عبر أحدهم عن كل هذا بقوله:" ترى بالقرب من الزاوية جمعًا من كل الأعمار، أطفال بؤساء عراة، أمهات تظهر عليهم مظاهر الفقر، وشيوخ جالسين على تل صغير، هذا هو الجو العائلي بالنسبة للأسر التي تطلب الصدقة في هذا المكان الكريم"

خامسا: المساعدة في أوقات الشدة

خلال أعوام 1865 ـ 1868م، تواصل القحط والجفاف، مما أدى إلى انعدام المواد الغذائية، والحبوب للناس، وانعدام العلف للحيوانات، وهنا تدخلت الزوايا فآوت الكثير من العائلات المتضررة من هذا الجفاف، وقد بلغ الذروة سنة 1869 حيث حصلت المجاعة الكبرى التي

لم تعرف لها البلاد مثيلا على مدى التاريخ، فمات من جرائها الآلاف، ولم تفعل السلطات الفرنسية شيئا، مما اضطر السكان إلى للجوء إلى الزوايا والمساجد، وكثير من سكان الهضاب العليا هاجر نحو مدن الشمال، ومنعهم الأوربيون من كسب قوتهم، ووضعوهم في محتشدات عامة: مليانة، الأصنام، غليزان. وهنا تدخلت المؤسسة الدينية ممثلة في الزوايا والمساجد الحرة وأنقذت الكثير ممن كانوا على وشك الهلاك. انطلاقاً من حديثه صلى الله عليه وسلم رواه الشيخان : **" المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، من فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة"(7)**

سادسًا : الحفاظ على عادات المجتمع:

ساهمت المؤسسة الدينية من خلال مختلف الأنشطة في الحفاظ على عادات وتقاليد المجتمع الجزائري الذي امتاز بشدة تماسكه وتآزره، خاصة في مواجهة الأزمات؛ ومن ذلك :

- التويزة: تعاون كافة أفراد المجتمع في القيام بأعمال ذات منفعة عامة دون مقابل، تطبيقا لقوله تعالى:[وتعاونوا على البروالتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان]، منها: ترميم أو بناء مسجد أو بناء سد، وكان يتم الإعلان عن موعدالتويزة بالزاوية أو المسجد عقب الصلوات الخمس، وتجدر الإشارة هنا إلى أن المسجد والزاوية نفسها بنيت واستكملت أغلب مرافقها بواسطة أعمال التويزة.

- الاحتفالات الدينية: لإحياء المناسبات والأعياد الدينية، المولد النبوي الشريف، ليلة القدر، ختم البخاري، ختم المختصر الخليلي.

ـ الاحتفالات الخاصة بموسم الحج: وقد كانت المؤسسة الدينية مسجداً كان أوزاوية تسهر على توفير المال لبعض الحجاج، لما كان يتطلبه الحج من أموال باهظة، وتكاليف مرتفعة، وينطلق ركب الحجاج من المؤئثة الدينية بعد توديعهم للشيخ الذين يطلبون منه الدعاء لهم وتيسير حجهم، وعند عودتهم أول مكان ينزلون به هو مقر الزاوية أو المسجد، حيث يسلمون على الشيخ ويتبركون به، ثم ينطلقون إلى أهاليهم؛ وهي عادة لا تزال موجودة إلى يومنا هذا في كثير من مناطق وطتتا بحمد الله.

ـ جاء في تقرير لسلطات الاحتلال : " في مختلف المناسبات والأعياد الدينية، تأتي أعداد كبيرة من الزوار والمريدين، من بعيد، لحضور الاحتفالات بعيد الفطر، عيد الأضحى، عاشوراء، والمولد النبوي والذي يتميز عن غيره من المناسبات، حيث توزع فيه الصدقات والأموال على الفقراء"

ويتضح لنا من خلال هذا العرض أن المؤسسة الدينية ورجالها قد أدّوا ما عليهم من واجب تجاه دينهم ووطنهم ومجتمعهم الذي عاشوا فيه وتفاعلوا معه، مع قضاياه، مشاكله، اهتماماته، بل كانوا يمثلون صوت الأمة وضميرها الحي في جل الفترات والعهود المتعاقبة، فقد نادوا بالحرية عاليا، نادوا بالثورة على الأوضاع، نادوا بالتغيير، مارسوا حق تغيير المنكر الذي منحتهم إياه الشريعة الإسلامية.

خدموا الدين والأمة بالرغم من الحصار والمضايقة والتهديد والتشريد والسجن والمتابعة، حياتهم كلها جهاد ونضال واستبسال في سبيل الدفاع عن القيم والمبادئ والدين والوطن

ـ النتـــائج الايجابية التي قدمتها المؤسسة الدينية :

ـ التخفيف من معاناة الشعب الجزائري، وذلك من خلال التكفل بالفقراء والمساكين واليتامى والأرامل.

ـ الحفاظ على تماسك المجتمع الجزائري ووحدته، حيث كانت تجتمع بالزاويا مختلف الأعراش والقبائل، من مناطق مختلفة، فتنمحي بذلك الفوارق الجهوية.

ـ تمكنت من قطع الطريق على كافة الجمعيات التبشيرية التي كانت تتخذ من النشاط الاجتماعي وسيلة لتحقيق مآربها التنصيرية، خاصة اتجاه اليتامى من أبناء هذا الشعب. ـ لقد عملت المؤسسة الدينية من خلال نشاطها على تنظيم العلاقات بين مختلف شرائح المجتمع وتدعيم عملية التكافل بينها، وقد كانت تستقبل الأموال من الأغنياء وتصرفها على الفقراء.

ـ تمكنت من انتشال العديد من اليتامى والمشردين وتكفلت بهم وكونت منهم علماء صالحين، ساهموا بفعالية في خدمة مجتمعهم

ـ مثلت المؤسسات الدينية قلاعًا حصينة في وجه المشاريع الاندماجية التي سعى الاستعمار الفرنسي إلى تطبيقها بأرض الجزائر.

ـ كانت زوايا الطرق الصوفية بمثابة مخازن ودواوين للكتب والمخطوطات في مختلف العلوم والفنون.

ـ اهتمت بتحفيظ القرآن الكريم للأطفال، ونشره بصورة مكثفة بين مختلف الطبقات الاجتماعية.

ـ احتضنت اللغة والثقافة العربية الاسلامية فكان ذلك شكلاً من أشكال مقاومة الجهل والأمية.[8]

موقف السلطات الاستعمارية من المؤسسات الدينية

منذ وطئت أقدام المستعمر الفرنسي أرض الجزائر أعلن الحرب على المؤسسة الدينين ولا سيما المساجد التي حوّل بعضها الى كنائس كما حدث بالنسبة لمسجد كتشاوة.

من سنة 1832 والى غاية 1962 ظل الناقوس يسمع من منارته بدل الآذان، فصار على حدّ تعبير الشاعر أبي البقاء الرندي :

حتى المساجد قد صارت كنائس ما ❖❖❖ فيهن الا نواقيس وصلبان

حتى المحاريب تبكي وهي جامدة ❖❖❖ حتى المنابر ترثى وهي عيدان [9]

وحوّلت بعضها الى مخازن حبوب واسطبلات، وعينت في أغلب المساجد المتبقية أئمة موظفون تصفهم جريدة البصائر بما يلي : " وأمّا رجال الدين عندنا فقد اختارتهم حكومة لائكية متسلطة وما اختارتهم إلاّ بعد أن ارتضتهم بميزانها لا بميزان الاسلام، وراعت فيهم شروطها لا شروط الاسلام، وما رأيناها تحفل في هذه الوظائف بالعلم ولا بالكفاءة الدينية... وإنها في حقيقتها مصائد لا وظائف... ومحال على الحكومة أن تطعم ثمرها، من يعصي أمرها."[10]

أمّا بالنسبة للزوايا فقد ظلّت ولقرون خلت محطّ رحال حفظة القرآن وطلبة العلم، ورباطات للجهاد كلما دعت الحاجة الى ذلك؛ هذا الدّور الذي ميّزها جعل الاستعمار الفرنسي يحاربها على عدّة جبهات :

1 ـ الأولى هدم بعضها ومصادرة أملاكها وأملاك الباقيات منها، وضم مداخيلها الى أملاك الدولة الفرنسية، في المدن أولا ثم في الأرياف لاحقا.

2 ـ الثانية إنشاء المدارس الفرنسية الابتدائية في المدن والأرياف لسحب التلاميذ من الزوايا ونشر التأثير الفرنسي ازاءها.

3 ـ الثالثة محاربة كبار المرابطين واستدراجهم بالوظائف والزواج المختلط، وتشجيع الدروشة والتدجيل بدل التعليم.

4 ـ وأخيرا منع الزوايا من نشر التعليم العام وفرض برنامج ضيق عليها لايتعدى تحفيظ القرآن الكريم دون تفسير أو تعليم قواعد اللغة وأصول الدين دون فهم.

وفي إحصاء يرجع إلى سنة 1851 جاء أنّ عدد تلاميذ الزوايا في الأرياف كان 8.347 متعلمًا، وعدد الزوايا 593 زاوية. وكان برنامجها تعليم الفقه والنحو والتاريخ الإسلامي والأدب، إلخ. ويدخلها التلاميذ الذين أنهوا المرحلة الأولى فحفظوا القرآن الكريم، وتعلموا القراءة والكتابة والحساب وبعض المتون. (11)

ولعلنا نجد في ما أدلى به المؤرخان الفرنسيان موريس واهل *Maurice wahl*، وأوغستان برنارد *Augustin Bernard* في كتاب " الجزائر " ما نختم به حديثنا هذا.

قالا وهما من غلاة المعمرين : " إ نَّ الذي يجمع بين سكان الصحراء وفلاحي التل هو الدين، فكلهم مسلمون: فالمساجد والزوايا والأضرحة (القباب) هي مراكز تجمعاتهم إن الكثير منهم منخرطون في الطرق الصوفية: الرحمانية الطيبية، التجانية والسنوسية والقادرية وهذه الطرق قوية... متشبثون بتعاليم دينهم، وقليل منهم من لم يراع هذه التعاليم، وضوء، صلاة صيام رمضان وفي كل سنة يذهب الآلاف منهم إلى الحج فمنهم من يموت في طريق الذهاب أو الإياب أو منهم من يرجع

منهوك القوى من أثر التعب والحرمان، إلا أنهم مسرورون بأداء الواجب المقدس، إن هذه الروح الحماسية في التعلق بالدين، وهي العائق الوحيد الذي وجدناه في طريقنا، فهي التي تعزز الروح الوطنية لإيقاد نيران الغضب وتشجيع المقاومة، أن معظم الثورات التي اجتاحت البلاد كانت بسبب دعاية رجال الدين والأدهى أنهم بمجرد إعلانهم للحرب على العدو الكافر تزول الخلافات بين الأفراد والقبائل فهذه هي الحقيقة دائما والتي ربما نصل إلى التخفيف من مفعولها إلا أن القضاء عليها صعب جدا...

إلى أن يقول:

" أما تنصير المسلمين الذي يحلم به بعضهم فهو خيال، حلم محفوف بالأخطار، فتعاليم الإسلام ومعنوياته واضحة فهو من هذه الناحية لا يختلف عن بقية الأديان إلخ.[12]

من هنا نشير الى أنّ المؤسسة الدينية حافظت ـ رغم المضايقات التي فرضت عليها، من محاولات تدجينها، وتمييعها، وإبعادها عن مهامها الرئيسية ـ ظلّت محافظة على وتيرة عملها في تبليغ رسالتها ولو بصور متفاوتة، تتأرجح بين القوة والضعف تارة، وبين القيادة والانسياق تارة أخرى. وكما وجد المجتمع الجزائري متمسكاً بمقوماته الحضارية وفي مقدمتها التعاليم الدينية التي يعبر عنها فاغنر[13] بقوله : " إنّه لمنظر جدير بالاعتبار أن ترى المسلم الفخور المعتز بنفسه ينحني أمام ربّه بخشوع العبد المذنب المرتعد. فالمصلون يصطفون خلف الإمام دون أن يقيموا وزناً للمكانة أو الأصل والنسب.[14]

الإحـالات

1 ـ د.محمود الخالدي: المدخل إلى الخطاب التربوي في التفكير الإسلامي، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، عدد 26، شركة دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر 2008، ص 123

2 ـ حميدة عميراوي : جوانب من السياسة الفرنسية وردود الفعل الوطنية في قطاع الشرق الجزائري (بداية الاحتلال)، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة، الجزائر 1984، ص 36.

3 ـ أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، ط1،ج3، 1830ـ1954، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان 1998، ص 171.

4 ـ سورة الحجرات، الآية 10.

5 ـ الآية 114، من سورة النساء.

6 ـ الآية 85 من سورة النساء.

7 ـ يحي بن شرف الدين النووي : رياض الصالحين، اختصره ورتبه الشيخ النبهاني المتوفى سنة 1350ه، دار القلم، بيروت، لبنان 1985م، ص 197.

8 ـ د.يحي بوعزيز : أوضاع الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر خلال القرنين 19و20م،ملتقى الفكر الاسلامي الواحد والعشرون "الحياة الروحية في الاسلام "، معسكر 26أوت الى 1سبتمبر 1987، ملتقيات الفكر الاسلامي، الجزء الرابع، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف 2005، ص ص 1322ـ1325.

9 ـ أنظر الطاهر بوشوشي : صفحات من تاريخ جامع كتشاوة، الأصالة،عدد 14،15 ،إصدار وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر 1973، ص 299.

10 ـ الشيخ البشير الإبراهيمي : عيون البصائر،ص 67.

11 ـ أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، ط1 ،ج3، 1830ـ1954، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان 1998، ص 173.

12 ـ الشيخ المهدي البوعبدللي :لقطات من ظهور السلفية بالجزائر انطلاقاً من أوائل القرن التاسع الهجري وتطورها ثم أثرها واستمراريتها إلى أوائل القرن الرابع عشر، ملتقى الفكر الإسلامي الواحد والعشرون "الحياة الروحية في الإسلام "، معسكر 26أوت الى 1سبتمبر 1987، ملتقيات الفكر الإسلامي، الجزء الرابع، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف 2005، ص ص 1298 ـ1312.

13 ـ هو موريس فاغنر رحالة ألماني عاش في الجزائر ما بين 1836و1838، انظم خلالها الى أعضاء البعثة العلمية الفرنسية، وشارك في بعض الحملات. منها حملة قسنطينة، وزار مناطق مختلفة من البلاد الجزائرية، منها المناطق التي لم تكن وطأتها الأقدام الفرنسية، حيث أتيح له أن يزور منطقة معسكر تحت حماية خليفة الأمير عبد القادر. وقد تحدث عن هذا كله في كتابه " رحلات في ولاية الجزائر " الذي أصدره عام 1841 مقدماً فيه صورة عن جزائر تلك الفترة.

14 ـ د. أبو العيد دودو : الحياة الاجتماعية في مدينة الجزائر إبان الاحتلال،الأصالة، عدد 8، إصدار وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر 1972، ص 43.